

مسألة: الإيمان بالقدر

وقوله : (ومن صفات الله - تعالى - أنه الفَعَّال لما يريد، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره ولا يصدر إلا عن تدييره ، ولا محيد لأحد عن القدر المقدور، ولا يُتجاوز ما خط في اللوح المسطور، أراد ما العالم فاعلوه، ولو عصمهم لما خالفوه، ولو شاء أن يُطيعوه جميعاً لأطاعوه ، خلق الخلق وأفعالهم، وقدر أرزاقهم وأجالهم، يهدي من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بحكمته.) شرح: (أراد ما العالم فاعلوه) يعني: جميع ما في الكون وما يحصل من الكائنات، فإنه مراد لله تعالى، ولكن هذه الإرادة تسمى إرادة كونية قدرية؛ لأنها يدخل فيها جميع الكائنات - فهي مرادة لله، فجميع الأفعال التي تحصل والتي تحدث كلها مرادة لله؛ الطاعات، والمعاصي، والمصائب، والحوادث، والأرزاق، والآجال كلها مرادة لله تعالى ، داخله في إرادته ، ولا تخرج عن كونها مرادة لله، فطاعات العباد مرادة، ومعاصيهم مرادة ، ولكن إرادة المعاصي الموجودة إرادة كونية قدرية. وبهذا نعرف أن الإرادة تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية ، فالإرادة الكونية يلزم وقوع مرادها، فكل ما أرادته الله كونه وقدرًا فإنه لا بد حاصل وواقع ، فالمعاصي الموجودة قد أرادها الله كونهً وقدرًا، والمصائب الحاصلة قد أرادها الله كونهً وقدرًا، والأرزاق الموجودة - ولو كانت حرامًا - قد أرادها الله كونهً وقدرًا، وكذلك الأولاد ذكورًا وإناثًا، والأرزاق والمكاسب والحرف، والصناعات، والدراسات والعلوم، وكل ما يجري في هذا الكون كله قد أرادته الله كونهً وقدرًا؛ لأنه فعال لما يريد، فلا يكون في الوجود إلا ما يريد. ولو عصمهم لما عصوه ولما خالفوه، فهو الذي يهدي من يشاء فضلًا منه ورحمة، ويضل من يشاء عدلاً منه وحكمة، فمن علم الله فيه خيرًا وعلم من قبله إقبالًا وتقبلًا للخير هداه الله وأنار قلبه ، ومن علم الله أنه شريرٌ وعلم أنه من أهل الشر، وأنه لا خير فيه حرمة الهداية، وحال بينه وبين الإيمان وقسى قلبه وصدده عن الخير { وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } (الكهف:49) . فمن هداه الله فهو فضلٌ منه ، ومن أضله فهو عدلٌ منه، ولا أحد يقدر أن يغير ما وقع؛ لقوله تعالى: { وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ } (الزمر:36-37) وكذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - في حديث خطبه الحاجة: { من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له } رواه مسلم في الجمعة برقم (867، 868). فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء. ولكنه - سبحانه - خلق الخلق ، وقسمهم إلى أهل طاعة ، وأهل معصية ، وعلم أهل الخير من أهل الشر، وعلم من يكون قابلاً للخير أهلاً له ، ومن يكون قابلاً للشر أهلاً له، فجعل هؤلاء أشقياء وهؤلاء سعداء، ولله الحجة البالغة يقول الله تعالى: { قُلْ قَلِيلٌ أَلْجَأُ الْبَالِغَةَ قَلْوًا سَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } (الأنعام:149) { إِنْ تَسَاءَلْتُمْ عَنْهُمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } (الشعراء:4) ؛ يعني: لو شاء الله لأُنزل عليهم آية فاهتدوا بها كلهم، ولكن علم الله من هو أهل للهداية ومن هو أهل للشقاوة يقول الله تعالى { قَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا } (الأنعام:125) . فإذا هدى الله - تعالى - هؤلاء، فلا بد أن نعتقد أن ذلك فضل منه ، وإذا أضل هؤلاء فذلك عدلٌ منه ، وأنه لو شاء لهدى الناس كلهم، فلا محيد لأحد عن القضاء الذي قضاه، ولا مخرج له عما حتمه عليه. وفي حديث القدر يقول صلى الله عليه وسلم: { لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطاه لم يكن ليصيبه } رواه الترمذي في القدر برقم (2231) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون، وعبد الله بن ميمون منكر الحديث. ورواه أبو داود في السنة برقم (4685، 4686). أي أن ما تكره من الأمور المقدره فإنها عن حكمة حصلت، وأن الذي قدرها حكيم يفعل ما يشاء قضاءً وقدرًا، وحكمة وشرعًا، لا محيد لأحد عن القضاء المحتوم الذي قدره. وهذا كله لا ينافي العمل ولا ينافي فعل الأسباب، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما أخبر صحابته بأنه: { ما منكم من أحد إلا قد كُتِبَ مقعده من الجنة أو كُتِبَ من النار ، قال رجل: يا رسول الله؛ أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟، فقال صلى الله عليه وسلم : اعملوا فكل ميسر } رواه البخاري في القدر برقم (6605)، ومسلم في القدر برقم (2647)، والترمذي في القدر برقم (2219) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة (66). فأمر بأن يعمل ، وأخبر بأن الإنسان يصير إلى ما قدره الله، فلا بد وأن يسير إليه فمن كتبه الله سعيدًا فلا بد أن يعمل بعمل أهل السعادة ولو في آخر لحظة في حياته، وكذلك من كتبه شقيًا. ففي حديث القدر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: { فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها } رواه البخاري بنحوه في بدء الخلق برقم (3208) ومسلم في القدر برقم (2643). فالأعمال بالخواتيم ، والله - تعالى - يوفق كل إنسان بأن يختم له من العمل بما هو أهله وما كتبه له ؛ ولهذا كان كثير من السلف ومن العلماء يكثر من الدعاء بحسن الخاتمة ؛ لأن الأعمال بخواتيمها.